إدوارد سعيد

اللقاء مع جان بول سارتر*

في هذه المقالة التي نُشرت بالإنجليزية في سنة ٢٠٠٠، يروي الكاتب الفلسطيني الكبير إدوارد سعيد وقائع الحلقة التي نظمتها مجلة "الأزمنة الحديثة" عن السلام في الشرق الأوسط في سنة ١٩٧٩، وكانت أساس العدد الخاص الذي أصدرته المجلة عن الموضوع.

أهمية هذا النص تكمن في أنه يحاول الإجابة عن السؤال الذي حيّر كثيراً من المثقفين العرب عن أسباب الموقف غير المؤيد للنضال الفلسطيني الذي اتخذه جان بول سارتر. فهذا الفيلسوف والكاتب الفرنسي الذي أطلق صيحة "عارنا في الجزائر"، والذي عُرف بمواقفه الجذرية ضد الاستعمار، بقي موقفه أقرب إلى الرواية الصهيونية.

هذا النص الذي يترجم للمرة الأولى إلى العربية، يكشف جانباً مهماً من مرحلة ثقافية مضت، كان فيها الوعي الأوروبي، لدى كثير من المفكرين اليساريين، عاجزاً أو غير راغب في اكتناه الطبيعة الكولونيالية للصهيونية.

كان جان بول سارتر يختفي عن الأنظار، بعدما كان، إلى زمن ليس ببعيد، أشهر المثقفين قاطبة. هوجم بسبب "عماه" عن معسكرات الاعتقال السوفياتية (الغولاغ) بعد وفاته في سنة ١٩٨٠ بقليل، وثمة مَن سخر من مذهبه الوجودي الإنسانوي لتفاؤله ونزعته الإرادوية وطموحه المبني حصراً على الزخم والنشاط. كانت سيرة سارتر المهنية كلها مؤذية لـ "الفلاسفة الجدد" الذين احتوت إنجازاتهم الباهتة شحنة كافية من العداء للشيوعية للفت الأنظار، كما كانت مؤذية لأنصار "بعد البنيوية" و"بعد الحداثة" الذين، عدا بعض الاستثناءات، سقطوا في نرجسية تكنولوجية كئيبة متعارضة كلياً مع شعبوية سارتر وسياساته العامة

* **المصدر**: Edward Said, "Diary: An Encounter with Jean Paul Sartre", *London Review of Books*, vol. 22, no. 11, (1 June 2000), p.p. 42-43,http://www.lrb.co.uk/v22/n11/edward-said/diary
ترجمة: فواز طرابلسي.

البطولية. فبدا أن الاتساع الضخم لنتاج سارتر كروائي وكاتب ومسرحي وكاتب سيرة وفيلسوف ومثقف سياسي وناشط ملتزم ينفّر الناس أكثر ممّا يجذبهم. فبعدما كان أحد "سادة الفكر" الفرنسيين الذي يحظى بأكبر قدر من الاستشهاد بكتاباته، صار، في فترة لا تزيد عن عشرين عاماً، الأقل قراءة والأقل عرضة للتحليل. لقد طوى النسيان مواقفه الشجاعة عن الجزائر وفييتنام، ونشاطه إلى جانب المضطهَدين، وجرأته عندما أعلن نفسه ماوياً راديكالياً خلال التظاهرات الطلابية في باريس في سنة ١٩٦٨، فضلاً عن اتساع مداركه وتميّزه الأدبي (والتي بسببها نال جائزة نوبل للآداب ورفضها). كان قد أصبح شخصية من المشاهير السابقين الملعونين، ما عدا في العالم الأنجلو ـ أميركي، حيث لم يؤخذ على محمل الجدّ كفيلسوف، وإنما كان يُقرأ بنوع من الاستعلاء كروائي وكاتب مذكرات طريف بين الحين والآخر، ليس معادياً للشيوعية بما فيه الكفاية، ولا يجاري ألبير كامو (الأقل منه موهبة بكثير) أناقة وهيبة.

ثم بدأت الموضة تتغير، كما هي حال معظم الأشياء الفرنسية، أو هكذا بدا من بعيد، فقد ظهرت بشأنه عدة كتب، وتداولته الأحاديث من جديد (ولو للحظات عابرة) من دون أن تصدر دراسات أو تأملات عنه. وبالنسبة إلى جيلي، فإن سارتر كان أحد كبار الأبطال المثقفين في القرن العشرين؛ كان رجلاً وضع نفاذ بصيرته ومؤهلاته الفكرية في خدمة كل قضية تقدمية من قضايا زماننا تقريباً. ومع ذلك لم يكن معصوماً ولا نُبُوئياً، وإنما على العكس، كان موضع إعجاب بسبب الجهود التي كان يبذلها لفهم الأوضاع، ولتضامنه مع قضايا سياسية عند الحاجة. لم يكن متعالياً أو مواربا قط، حتى لو أخطأ أو شطّ في التعبير، فكل ما كتبه كان مثيراً تقريباً لجرأته الكبيرة وحريته (التي كانت تجنح إلى الثرثرة) وكرم نفسه.

هناك أمر واحد أود التطرق إليه هنا، ويدفعني إلى ذلك نقاشان مذهلان، وإن يكونا محبطَين، لزيارته مصر في مطلع سنة ١٩٦٧، وكانت "الأهرام ويكلي" قد نشرتهما الشهر الماضي: الأول، ورد في مراجعة لكتاب برنار هنري ليفي الأخير عن سارتر؛ والثاني، جاء في مراجعة لآخر تقرير للطفي الخولي عن تلك الزيارة (والخولي مثقف مصري بارز كان من مضيفي سارتر). أمّا تجربتي الكئيبة مع سارتر فلحظة ثانوية في حياة عظيمة، غير أنها تستحق التوقف عندها لما فيها من مفارقات، ولما تثيره من مشاعر.

كان ذلك في أوائل كانون الثاني / يناير ١٩٧٩، وكنت في منزلي في نيويورك أُعدّ لأحد دروسي، حين رنّ جرس الباب معلناً وصول برقية، وما إن فتحتها حتى لاحظت أنها من باريس. "أنت مدعو من مجلة 'الأزمنة الحديثة' (Les Temps Modernes) إلى حضور حلقة نقاشية عن السلام في الشرق الأوسط في باريس في ١٣ و١٤ آذار / مارس من هذه السنة. نرجو الردّ. سيمون دوبوفوار وجان بول سارتر." في البدء ظننت البرقية مقلباً / مزحة، كأن تكون دعوة من كوزيما وريتشارد فاغنر كي أذهب إلى بايروث (Bayreuth)، أو من تي. إس. إليوت وفرجينيا وولف لقضاء عصرية في مكاتب مجلة "دايل" (Dial). اقتضى الأمر يومين لأتأكد عبر أصدقاء عديدين في نيويورك وباريس أن البرقية صحيحة، وفترة أطول من الوقت كي أرسل موافقتي غير المشروطة (بعد أن علمت أن "الشكليات"، وهو التعبير الفرنسي المهذّب لمصاريف

السفر والإقامة، ستتعهدها "الأزمنة الحديثة"، المجلة الشهرية التي أسسها سارتر بعد الحرب). وبعد بضعة أسابيع كنت في طريقي إلى باريس.

لقد أدت "الأزمنة الحديثة" دوراً استثنائياً في الحياة الثقافية لفرنسا وأوروبا والعالم الثالث، وكان سارتر جمع حوله فريقاً لافتاً من الأدمغة ـ ليسوا جميعاً على اتفاق معه ـ ضم بوفوار طبعاً، ونقيضه الكبير ريمون آرون، والفيلسوف البارز وزميله في "معهد المعلمين العالي" موريس ميرلو ـ بونتي (الذي غادر المجلة بعد عامين من التأسيس)، وميشال ليريس، عالم الإثنولوجيا، والمتخصص بأفريقيا وبمصارعة الثيران. لم يكن هناك قضية أساسية من قضايا العالم لم يتطرق إليها سارتر وفريقه، بما في ذلك حرب ١٩٦٧ العربية ـ الإسرائيلية التي صدر بشأنها عدد خاص وضخم من "الأزمنة الحديثة" كان بدوره محور مقالة لامعة بقلم آي. إف. ستون. وهذا بحد ذاته جعل زيارتي لباريس سابقة تستحق الاهتمام.

عندما وصلت، كانت تنتظرني رسالة قصيرة وغامضة من سارتر وبوفوار في الفندق الذي حجزت فيه في الحي اللاتيني، وجاء في الرسالة: "لأسباب أمنية، ستُعقد اللقاءات في منزل ميشال فوكو"، وكان العنوان مذكوراً فيها. وصلت في العاشرة صباحاً من اليوم التالي إلى شقة فوكو حيث وجدت عدداً من الأشخاص يلتف بعضهم حول بعض، ولم يكن سارتر بينهم. لم يستطع أحد أن يفسر لي "الأسباب الأمنية" الغامضة التي استلزمت تغيير مكان اللقاء، وبالتالي خيّم جو من التآمر على مداولاتنا. كانت بوفوار حاضرة بعمامتها الشهيرة، تحاضر مَن يرغب في أن يسمع عن رحلتها المقبلة إلى طهران مع كايت ميليت، حيث تنويان تنظيم تظاهرة ضد الشادور؛ وقد وجدتُ الفكرة برمّتها متعالية وسخيفة. ومع أني كنت متلهفاً لسماع ما لدى بوفوار أن تقوله، إلاّ إني سرعان ما أدركت أنها متكبرة إلى حد كبير، ولا تطيق أي نقاش في تلك الفترة. غادرت بوفوار بعد ساعة أو أكثر (مباشرة قبل وصول سارتر)، ولم نرَها بعد ذلك.

سرعان ما أوضح لي فوكو أن ليس لديه ما يقدمه للحلقة، وأنه سيغادر مباشرة إلى "المكتبة الوطنية" لمتابعة أبحاثه اليومية، لكنني سررت لرؤية كتابي "بدايات" في مكتبته التي كانت رفوفها تعجّ بمواد هائلة ومرصوفة بعناية، بما في ذلك الصحف والمجلات. ومع أننا تحادثنا بود، إلاّ إني لم أكتشف إلاّ لاحقاً (في سنة ١٩٨٤ بعد عقد من الزمن على وفاته) لماذا تحاشى بشدة أن يقول لي أي شيء عن السياسات في الشرق الأوسط. ففي سيرتهما المشتركة، يكشف ديدييه إيريبون وجايمس ميلر أن فوكو كان يدرّس في تونس في سنة ١٩٦٧، وأنه غادر البلد على عجل بُعيد حرب حزيران / يونيو بقليل. وقد قال فوكو حينها إن سبب مغادرته هو رعبه من التظاهرات "المعادية للسامية" ضد إسرائيل، وهي التظاهرات التي عرفتها جميع المدن العربية بعد الهزيمة العربية الكبرى. غير أن زميلة له في قسم الفلسفة في جامعة تونس روت لي رواية مختلفة في مطلع التسعينيات. قالت إنه طُرد من البلد بسبب نشاطاته المثلية مع طلاب يافعين؛ وحتى الآن لا أدري أي الروايتين هي الأصح. خلال حلقة باريس، قال لي أنه عائد للتو من زيارة لإيران حيث كان مراسلاً خاصاً لجريدة "كورييري ديلا سييرا". "مثيرة جداً، غريبة جداً، مجنونة"، هذا ما أذكر أنه قال عن الأيام الأولى من الثورة الإيرانية. وأعتقد (وربما أكون على خطأ)،

أني سمعته يقول أنه تنكّر بشعر مستعار في إيران، علماً بأنه بعد برهة قصيرة من نشر مقالاته ابتعد بسرعة عن كل ما يتعلق بإيران. أخيراً في نهاية الثمانينيات، قال لي جيل دولوز إن علاقته بفوكو انقطعت بسبب قضية فلسطين، مع أنهما كانا صديقين حميمين، ففوكو يؤيد إسرائيل ودولوز يؤيد الفلسطينيين.

وعلى الرغم من أن شقة فوكو كانت وسيعة ومريحة جداً بصورة واضحة، فإنها كانت ذات لون أبيض فاقع وبسيطة جداً، وكانت ملائمة لفيلسوف مستوحد ومفكر غزير الإنتاج، ويبدو أنه كان يسكنها منفرداً. كان بين الحضور بضعة فلسطينيين ويهود إسرائيليين، وكان بينهم إبراهيم دقاق الذي صار منذ ذلك الوقت صديقاً مقدسياً مقرباً، ونافذ نزّال، وهو مدرّس في بير زيت كنت قد عرفته بشكل سطحي في الولايات المتحدة، ويهوشعفاط هركابي، الخبير الإسرائيلي الأول بـ "العقل العربي"، وهو رئيس سابق للاستخبارات الإسرائيلية كانت غولدا مئير قد طردته لأنه أعلن حالة استنفار في الجيش عن طريق الخطأ، وكنا، قبل لقائنا في حلقة باريس بثلاثة أعوام، زميلين في قسم العلوم السلوكية في مركز جامعة ستانفورد للدراسات المتقدمة، غير أنه لم تنشأ بيننا علاقة تُذكر، بل كان التعامل مهذباً، لكن بعيد عن أن يكون ودياً. في باريس، كان هركابي في طور تغيير مواقفه، ليصير أبرز "الحمائم" في المؤسسة الإسرائيلية، وكان رجلاً سيتحدث قريباً بوضوح عن الحاجة إلى دولة فلسطينية كان يعتبرها ذات فائدة استراتيجية من وجهة نظر إسرائيل. أمّا سائر المشاركين في الحلقة فكانوا في معظمهم إسرائيليين أو يهوداً فرنسيين، من الأشد تديّناً إلى الأشد علمانية، مع أنهم جميعاً صهيونيون إلى هذا الحد أو ذاك. وبدا أن واحداً منهم، إيلي بن غال، على صلة قديمة بسارتر، وقيل لنا إنه كان دليل سارتر في زيارة أخيرة له لإسرائيل.

عندما ظهر الرجل الكبير أخيراً، بعد انقضاء وقت ليس بالقليل على الموعد المحدد، صُدمت بهرمه وهزاله. وأذكر أني قدّمت فوكو إليه، في حركة خرقاء وبلا معنى، كما أذكر أن سارتر كان محاطاً دوماً بحاشية صغيرة تدعمه ويتّكل عليها كلياً، وهي بدورها جعلت منه شاغل حياتها. أحد أعضاء تلك الحاشية كانت ابنته بالتبني، وقد علمت لاحقاً أنها المسؤولة عن تنفيذ وصيته الأدبية، وقيل لي إنها من أصل جزائري. والآخر هو بيير فكتور، وهو ماوي سابق تشارك مع سارتر في إصدار صحيفة "غوش بروليتاريين" ("اليسار البروليتاري") المتوقفة حالياً، وقد بات، على ما أفترض، شديد التديّن ويهودياً أورثوذكسياً ؛ وصُعقت لاكتشافي من أحد المساهمين في الصحيفة أن بيير فكتور يهودي مصري يدعى بِني ليفي، وأنه شقيق عادل رفعت (المولود ليفي) أحد أفراد طرفَي الثنائي المعروف باسم محمود حسين (وهذا الأخير مسلم مصري. وكان الثنائي يعمل في منظمة الأونيسكو وقد ألّفا معاً كتاب "الصراع الطبقي في مصر" باسم محمود حسين، وهو دراسة شهيرة نُشرت في دار ماسبيرو). لم يبدُ على فكتور أي ملمح مصري، وإنما بدا مثقفاً من مثقفي "الضفة اليسرى" [من نهر السين]، نصفه مفكّر ونصفه الآخر محتال. ثالث أفراد الحاشية هو هيلين فون بولو، وهي امرأة تعرف ثلاث لغات، وكانت تعمل في الصحيفة ["غوش بروليتاريين"] وتترجم كل شيء لسارتر. فمع أن سارتر أمضى زمناً في ألمانيا، وكتب ليس فقط عن هايدغر، بل عن فولكنر ودوس باسوس أيضاً، إلاّ إنه لم يكن يجيد الألمانية ولا الإنجليزية.

كانت فون بولو امرأة ودودة وأنيقة، ولازمت سارتر خلال يومَي الحلقة، وكانت تهمس في أذنه بالترجمة الفورية. دارت نقاشاتنا باللغة الإنجليزية باستثناء مداخلة أحد الفلسطينيين من فيينا الذي لم يكن يتحدث إلاّ العربية أو الألمانية. لن أعرف أبداً ما فهمه سارتر من المداولات، لكن أقلقنا جداً (أنا وكثيرون غيري)، أنه التزم الصمت طوال مداولات اليوم الأول. وكان ميشال كونتا، كاتب سيرة سارتر، بين الحضور، لكنه لم يشارك في المداخلات.

الغداء الذي لا يتعدى ساعة في الأحوال العادية، استغرق على الطريقة الفرنسية ثلاث ساعات ونصف الساعة: كان كناية عن عملية معقدة جداً، إذ تناولناه في مطعم ليس بالقريب، وبما أن المطر كان يهطل من دون انقطاع، فقد انتقل إليه الجميع بواسطة سيارات التاكسي، ثم جلسنا لتناول الغداء المكون من أربع وجبات، قبل أن نقفل عائدين. ولهذا، لم تطل مناقشاتنا عن "السلام" (في اليوم الأول)، وكان فكتور قد حدد الموضوعات من دون تشاور مع أحد على ما تبيّن لي. وقبل ذلك، (كنت قد) شعرت بأن الرجل هو الحاكم بأمره، والفضل في ذلك، من دون شك، يعود إلى علاقته المميزة بسارتر (الذي كان يتبادل الحديث معه همساً بين حين وآخر)، وإلى ثقته الضخمة بنفسه أيضاً. كان علينا أن نناقش: ١) تقويم معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل (كنا في زمن كامب ديفيد)؛ ٢) السلام بين إسرائيل والعالم العربي بصورة عامة؛ ٣) المسألة الأكثر أساسية والمتعلقة بمستقبل التعايش بين إسرائيل وسائر العالم العربي. لم يسعد أي من العرب بجدول الأعمال هذا، وأنا شعرت بأنه يقفز فوق قضية الفلسطينيين. أمّا دقاق الذي أزعجته التركيبة كلها، فغادر بعد اليوم الأول.

مع انقضاء ذاك النهار، اكتشفت ببطء أن قسماً كبيراً من التفاوض تمّ سلفاً من أجل عقد الحلقة، وأن مساومات على المشاركة من العالم العربي جرت، فجاءت بالتالي مختصرة بسبب التجاذبات السابقة. كذلك أحزنني أني لم أكن طرفاً في أي منها، ففكّرت: لعلني كنت بالغ السذاجة، كثير الشغف للمجيء إلى باريس ومقابلة سارتر. وكان هناك كلام على مشاركة إيمانوئيل ليفيناس، لكنه لم يظهر، وذلك على غرار المثقفين المصريين الذين وُعدنا بمجيئهم ولم يأتوا. في تلك الأثناء كانت مناقشاتنا تُسجَّل، وقد نُشرت لاحقاً في عدد خاص من "الأزمنة الحديثة" (أيلول / سبتمبر ١٩٧٩)، لكن العدد لم يُثر إعجابي قط، لأننا تناولنا فيه موضوعات مألوفة، إلى هذا الحد أو ذاك، من دون تحقيق أي تقارب.

كانت بوفوار خيبة أمل كبيرة، وقد غادرت الغرفة بحركة عاصفة وسط غيمة من الثرثرة المتعنتة عن الإسلام وتحجيب النساء. لم أفتقد غيابها آنذاك، لكني اقتنعت لاحقاً بأن حضورها كان من شأنه تفعيل المناقشات. أمّا حضور سارتر، على ندرته، فكان سلبياً وغير مؤثر ومن دون جدوى إلى حد غريب: لم يقل شيئاً لساعات، وخلال الغداء جلس قبالتي، مغتماً ومنغلقاً كلياً عن أي تواصل، فيما البيض والمايونيز يسيلان على وجهه. عبثاً حاولت أن أفتح معه حديثاً، ولعله كان أصمّ، لكني لم أكن متأكداً من ذلك. في جميع الأحوال، بدا لي أنه نسخة مشوشة عن ذاته السابقة، ببشاعته التي يُضرب بها المثل، وغليونه، وثيابه العاصية على الوصف والتي تتدلى منه مثل مشجب على مسرح مهجور. في تلك الفترة كنت بالغ النشاط في السياسة الفلسطينية: انضممت في سنة ١٩٧٧ إلى عضوية "المجلس الوطني الفلسطيني"، وخلال زياراتي المتكررة

لبيروت (وكان ذلك في زمن الحرب الأهلية اللبنانية) لرؤية والدتي، كنت أقابل عرفات بانتظام، وكذلك معظم القادة الفلسطينيين في تلك الفترة، فتراءى لي أن الضغط على سارتر للإدلاء بتصريح مؤيد للفلسطينيين في مثل تلك الفترة "الساخنة" من تنافسنا القاتل مع إسرائيل، سيكون إنجازاً عظيماً.

خلال الغداء وفي جلسة بعد الظهر، أدركت أن بيير فكتور هو مدير محطة قطارات الحلقة، وبينها قطار سارتر نفسه. فعلاوة على همساتهما الغامضة على المائدة، كانا ينهضان من وقت إلى آخر، وكان فكتور يقود العجوز الذي يجرّ قدميه جرّاً بعيداً عنا، فيحادثه بسرعة، ويحصل منه على هزة رأس أو هزتين، ثم يعودان إلينا. وفي تلك الأثناء، كان كل واحد من المشاركين في الحلقة يريد أن يدلي بدلوه، فيستحيل بذلك الوصول إلى نقاش، مع أنه سريعاً ما تبيّن أن دعم إسرائيل (ما يسمّى في أيامنا هذه "تطبيعاً")، لا تأييد العرب أو الفلسطينيين، هو الغرض الحقيقي للاجتماع. وقد صرف عدد من العرب قبلي، وقتاً في محاولة إقناع هذا المثقف الشهير أو ذاك بعدالة قضيتهم على أمل بأن يتحول إلى آرنولد توينبي أو شون ماك برايد آخر، وبعض من هؤلاء المشهورين فعل ذلك، وبدا لي أن سارتر يستحق الجهد لأني لم أستطع تناسي موقفه من الجزائر، الذي كان التمسك به، وهو الفرنسي، أكثر صعوبة من موقف نقدي تجاه إسرائيل. كنت على خطأ طبعاً.

بينما كانت النقاشات الطنانة والعديمة الجدوى تتلاشى، وجدتني أذكّر نفسي بأني جئت إلى فرنسا لسماع ما سيقوله سارتر، وليس آراء أشخاص أعرفها سلفاً ولا أجدها جذابة. لذا قاطعت النقاش بحدة في بداية الأمسية، وأصررت على أن نسمع رأي سارتر فوراً. أثار اقتراحي الاستنكار وسط أفراد الحاشية، فرُفعت الجلسة ريثما يعقدون المشاورات العاجلة فيما بينهم، ووجدتُ الأمر هزلياً ومثيراً للشفقة في آن، وخصوصاً أنه لم يبدُ أن لسارتر أي دور في تلك المداولات. أخيراً، استدعانا بيير فكتور مجدداً إلى طاولة الاجتماع، وكان الانزعاج بادياً عليه، وأعلن لنا بخطابية عضو مجلس شيوخ في روما: "سيتحدث سارتر غداً"، فانسحبنا وكلنا يتطلع إلى وقائع جلسة الغد.

بالتأكيد كان لدى سارتر ما يقوله لنا: نص جاهز من صفحتين مطبوعتين ـ وأنا أكتب هذا استناداً إلى ذاكرة عمرها عشرون عاماً على الحدث ـ أشاد فيهما بشجاعة أنور السادات مستخدماً أسخف البديهيات التي يمكن تصوّرها. لست أذكر أنه قال شيئاً عن الفلسطينيين، أو عن الأرض، أو عن مآسي الماضي، والأكيد أنه لم يشر إلى الاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي، وهو شبيه من عدة نواح بالممارسة الفرنسي في الجزائر. كانت كلمته مفيدة بقدر إفادة برقية أنباء لوكالة رويتر، والواضح أن كاتبها هو فكتور السمج الذي يبدو أنه يتحكم في سارتر كلياً، قصد إخراجه من الورطة، وقد صُعقت لاكتشافي أن هذا المفكر البطل أذعن في أيامه الأخيرة لمثل هذا المعلم الرجعي، وأن المقاتل السابق باسم المضطهدين ليس لديه ما يقدمه بالنسبة إلى موضوع فلسطين غير المديح الصحافي المكرور لزعيم مصري سبق أن رُفع إلى مصاف الشهرة. بقي سارتر صامتاً طوال اليوم، بينما استمرت المداولات مثل السابق، وتذكرت قصة مشكوكاً في صحتها وفحواها أن سارتر منذ عشرين عاماً خلت سافر إلى روما لمقابلة فرانتز فانون (الذي كان يحتضر بمرض سرطان الدم)، وألقى عليه لـ ١٦ ساعة من دون توقف محاضرة عن مآسي الجزائر (هكذا قيل) حتى أوقفته

سيمون. لقد ولّى "سارتر" ذاك إلى الأبد.

عندما نُشر محضر الحلقة بعد بضعة أشهر، كانت مداخلة سارتر قد تعرضت لمزيد من التحرير، الأمر الذي زاد من قلة أثرها، ولست أتصور لماذا حدث ذلك، ولا أنا سعيت للمعرفة. ومع أني لا أزال أحتفظ بعدد "الأزمنة الحديثة" الذي نُشرت فيه وقائع الحلقة، إلاّ إني لم أستطع أن أجبر نفسي على إعادة قراءة أكثر من بضعة مقاطع منه، لأن صفحاته تبدو لي الآن سطحية وعديمة الجدوى. لقد ذهبت إلى باريس للاستماع إلى سارتر بالروحية ذاتها التي دُعي بها سارتر لزيارة مصر: كي يشاهده المثقفون العرب ويحادثونه، لكن النتيجة تكررت حرفياً في الحالتين، مع فارق أن مقابلتي له اسودت، وبالأحرى تلطخت، بحضور وسيط منفّر هو بيير فكتور الذي طواه النسيان الذي يستحقه منذ ذلك الحين. أحسست بالفشل والخيبة، وبأني مثل فابريس الذي ذهب يفتش عن معركة واترلو.

نقطة إضافية: منذ أسابيع، شاهدت طرفاً من برنامج "حساء الثقافة"، وهو البرنامج الحواري الأسبوعي الذي يقدّمه برنار بيفو على التلفزيون الفرنسي، والذي يعاد بثّه في الولايات المتحدة. كانت الحلقة عن إعادة الاعتبار البطيئة إلى سارتر بعد الوفاة في مواجهة الحملة المستمرة في انتقاد أخطائه السياسية، وكان برنار هنري ليفي حاضراً ـ ولا يكاد يوجد مَن يختلف عن سارتر بقدره من حيث الذهن والجرأة السياسية ـ ليلسع بالسوط مستخدماً دراسته المنحازة إلى الفيلسوف العجوز (أعترف بأني لم أقرأها ولست أنوي ذلك قريباً). "لم يكن سيئاً إلى درجة كبيرة" قال بأبوية مستعلية، "بل فوق ذلك لديه أشياء تدعو إلى الإعجاب المطرد وهي صحيحة سياسياً." وقد قصد برنار هنري ليفي من ذلك أن يوازن ما يعتقد أنه النقد المتين لسارتر كونه كان مخطئاً دوماً بشأن الشيوعية. وقد صدح برنار قائلاً: "مثلاً، ما دوّنه سارتر عن إسرائيل كان مثالياً: فهو لم ينحرف عنه وظل مؤيداً حاسماً للدولة اليهودية."

ولأسباب لا نزال نجهلها بالتأكيد، فإن سارتر ظل ثابتاً في أصوليته المؤيدة للصهيونية. أكان هذا بسبب خوفه من أن يُتهم باللاسامية، أو تعبيراً عن شعور بالذنب بسبب المحرقة، أو لأنه لم يسمح لنفسه بالتعبير عن تقدير عميق للفلسطينيين كضحايا الظلم الإسرائيلي، والمناضلين ضده، أو لأي سبب آخر، فإنه لن يتسنّى لي أن أعرف السبب أبداً. كل ما أعرفه هو أن الرجل في شيخوخته بدا كما كان وهو أصغر سنّاً: خيبة مريرة لكل عربي (غير جزائري) أُعجب به. الأكيد أن برتراند راسل كان أفضل من سارتر، وقد أخذ في أيامه الأخيرة مواقف نقدية تجاه سياسات إسرائيل ضد العرب (مع أن ذلك، على ما قيل، هو نتيجة تلاعب زميلي السابق في الدراسة في جامعة برنستون، رالف شومان). وأحسب أننا نحتاج إلى معرفة لماذا يصير المشهورون في شيخوختهم قابلين لأن يخضعوا إمّا لخداع مَن هم أصغر منهم سنّاً، وإمّا لمعتقدات سياسية غير قابلة للتعديل. إنها لفكرة محبطة لكن هذا ما حدث لسارتر. فباستثناء الجزائر، فإن عدالة القضية العربية لم تستطع أن تترك أي أثر عليه، ولست قادراً على الحسم ما إذا كان السبب في ذلك يعود كلياً إلى إسرائيل، أو إلى إنعدام أصلي للتعاطف مع العرب. أكان ذلك ثقافياً أو ربما دينياً. لقد كان سارتر في ذلك مختلفاً كلياً عن صديقه ومعبوده جان جينيه الذي احتفل بشغفه الغريب بالفلسطينيين من خلال الإقامة المديدة

بينهم، وفي كتابيه الاستثنائيين: "أربع ساعات في شاتيلا"، و"الأسير العاشق". بعد عام من لقائنا القصير والمخيّب للأمل في باريس، توفي سارتر، وأنا أذكر بوضوح كم تألمت لغيابه. ■

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل ـ ٦)
المساعدات الدولية في الضفة الغربية وقطاع غزة

هديل رزق ـ القزاز

يصدر قريباً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بترول شرق المتوسط: الأبعاد الجيوسياسية

تحرير: وليد خدوري